الحياة الثقافية في مصر المملوكية

د. أحمد جلايلي
جامعة قاصدي مرباح – ورقلة –الجزائر

المقدمة:

حكم الممالك مصر والشام حقبة معتبرة من الزمن، كان لها الأثر البالغ في حياة الشعوب، ولم يتفق النقاد على تسمية عصرهم، وأطلقوا عليه أسماء ونعوتا كثيرة، منها: عصر المماليك[1]، والعصر التركي[2]، والعصر المغولي[3]، وعصر الانحطاط[4]، وعصر الدول المتتابعة[5].

وعرفت هذه الحقبة اضطرابات سياسية، وظروفا عصيبة في مختلف مراحلها، فتعدد سلاطينها، وكثرت فيها الفتن والبلايا كانت وبالا على المجتمع. وهذا لا يعني أن العصر خلا من محاسنه، فلقد أقيمت مدارس ومساجد وزوايا في المدن الكبرى وبخاصة في القاهرة، فازدهرت الثّقافة، وكثرت المؤلفات على اختلافها، بغض النظر عن جودتها أو رداءتها[6].

ولإضاءة فضاء الثقافة في مصر ولا سيما في القاهرة أثناء عصر المماليك ينبغي أن نعرض باختصار الحالتين: السياسية، والاجتماعية.

أولا: الحالة السياسية:

الممالك عبيد معظمهم أتراك، جلبهم تجار تخصصوا في تجارة الرقيق، ابتاعهم وامتلكتهم سلاطين مصر وأبناؤهم لإنشاء الجيوش الكافية لحروبهم، وأصبح منهم رجال أقوياء قبضوا على ناصية الحكم، وصار منهم السلاطين[7].

وتظهر دولة المماليك بموت الصالح أيوب سنة سبع وأربعين وستمائة للهجرة (647هـ) قبل أن يتمكن من رد الحملة الصليبية [8]على مصر، فقام بإدارة شؤون الجيش مجموعة من كبار المماليك بمشورة زوجه شجرة الدر (ت65هـ)[9] إلى أن عاد توران شاه بن الصالح أيوب (ت648هـ)، وانتصر على الصليبين بفضل المماليك إلا أنه أهملهم وأعرض عنهم؛ فقتلوه، وولوا أمرهم شجرة الدر، على أن يكون عز الدين أيبك (ت655هـ) قائدا للجيش الذي ما لبث أن صار لها زوجا ثم ملكا[10]. ومرت دولة المماليك بمرحلتين، سميت أولهما بـ"المماليك البحرية"، وثانيهما بـ"المماليك البرجية".

أ–المماليك البحرية:

امتد حكمهم من سنة ثمان وأربعين وستمائة للهجرة (648هـ) إلى سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة للهجرة (783هـ). جلبهم ملوك وأبناء الدول الأيوبية[11] لاسيما في عهد الملك أيوب الذي استكثر منهم، وكان معظمهم يرابطون على ضفة نهر النيل، لذلك أطلق عليهم اسم "المماليك البحرية".

وأشهر سلاطينهم بعد عز الدين أبيك الظاهر بيبرس (ت676هـ) ، والمنصور قلاوون (ت689هـ) والأشرف خليل(ت 693هـ). ومن تولى بعدهم كثيرون[12]، منهم من لم يتول السلطة إلا بضعة أيام، أو أشهر معدودات. ومنهم من تولاها صبيا[13].

وبرزت في هذه المرحلة شخصية الظاهر بيبرس الذي استطاع أن يتصدى لهجمات التتار[14]، وأن يرد الخطر عن العالم الإسلامي، منتصرا على هذه القوة الزاحفة نحو "بلدان التمدن القديم في وحشية مدمرة متعطشة إلى الدم عرف بها هذا العرق، وكان له طابعا "[15]. وهو الذي نقل الخلافة العباسية إلى مصر بإحضار أحد أبناء الخلفاء العباسيين ليمثل السلطة الدينية، وليجمع شمل العالم الإسلامي، لكنها كانت خلافة وهمية إلى أن قامت الدولة العثمانية[16].

ب–المماليك البرجية:

امتد حكمهم من سنة أربع وثمانين وسبعمائة للهجرة (784هـ) إلى سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة (923هـ).

والمماليك البرجية معظمهم من أصل جركسي[17]، كانوا في أول أمرهم حرسا لقلاوون. وعرفوا بهذا الاسم لأنهم سكنوا أبراجا بقلعة القاهرة. وأول سلطانهم الظاهر سيف الدين أبو سعيد برقوق(ت801هـ)، ثم تولى بعده جمع من السلاطين[18].

تميزت الدولة الأولى البحرية بطول حكم كثير من سلاطينها، مما وفر لها الاستقرار، وتحققت في سنواتها بعض الانتصارات العسكرية ضد التتار والصليبيين كما تَمَّ كثيرٌ من الإصلاحات الداخلية، وتمتع الناس بالهدوء سنواتٍ كان فيها الرخاء والسلام[19].

أما الدولة الثانية (البرجية) فقصر فيها حكم سلاطينها، ولم يكن فيها من العظام البارزين إلا قليلا وفيها "عدل عن نظام الوراثة، وسار المماليك ينتخبون أوفرهم حظا من كفاية والمقدرة، أو أعلاهم سنا في بعض الأحيان. ومنذ ذلك الحين تقلصت صلاحيات السلطان المطلقة نظريا وانتهت شيئا بعد شيء إلى العدم، وذلك بأن أحكامه وقراراته أمست خاضعة لتصديق مجلس للدولة، قوامه زعماء المماليك المقدمين، وكان هؤولاء شديدي الغيرة على طبقتهم يبتغون أن يحتفظوا بها نقية صافية "[20].

ويظهر مما سبق أن الحالة السياسية في الدولتين (البحرية والبرجية) كانت متفاوتة في الدرجة والمقدار، وكانت أضعف وأكثر فوضى في عصر المماليك البرجية، ويرجع هذا الضعف إلى تهافت الأمراء على جمع الأموال، والبحث عن الوظائف، وجهلهم بوقائع الحروب، "وأعظم من هذا أنهم لم يقربوا أحدا من الأكابر وأرباب المعرفة، فظلوا وأظلوا، وذهبوا وأذهبوا، وتركوا المال باختلاف آرائهم لمن عادهم"[21]، فانقرضوا وقام مقامهم العثمانيون سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة 923هـ .

ثانيا: الحالة الاجتماعية:

الممالك عبيد بينهم وبين أسيادهم أواصر خدمة وتربية، فهم خدام طائعون سامعون، شاكرون للنعمة إلى أن يعتقوا. عاشوا "منعزلين عمن حواليهم من الناس، واختلفوا بشخصيتهم، ولم يختلطوا بأي عنصر من عناصر السكان، مسلمين أو غير مسلمين"[22].

وحفاظا على هذه الوحدة الاجتماعية قد "يتدخل السلاطين في اختيار زوجات المماليك"[23] إلى أن أجازوا لهم الاختيار، ونزلوا إلى القاهرة، وتزوجوا من أهلها، وامتزجوا بهم[24].

والظاهر أن هذه العزلة كانت ترفعا منهم على أهل البلاد في عهد الدولة الأولى (البحرية)، ثم ما لبثت أن تلاشت في الثانية (البرجية)، أو لعلها يأس من الحياة المملوكية التي كانت بيد غيرهم من السلاطين.

وعاش الأمراء من المماليك متمتعين بالنفقات المتتالية من السلطان زيادة عن أراضي الإقطاع[25]؛ التي صارت لهم ملكا خاصا، وسارعوا إلى المصادرة والاحتكار، على الرغم من احتجاج العلماء والفقهاء في ذلك الزمن[26]. وتنافسوا في جمع الأموال ومنعها، ولنتأمل سويا هذه التركة التي وردت في نصِّ ابن قاضي شهبة[27] في معرض حديثه عن أحد الأمراء. إذ يقول: "انحصر النقد من تركته، فكان ألف ألف وستين ألفا، مابين ذهب وفضة وفلوس، ومن الإبل والبقر والجواميس والأغنام ثمانين ألف رأس، خارجا عن بقية الأموال"[28].

وموقف الشك في كيفية جمع هذه الأموال هو ما دفع ابن قاضي شهبة إلى وصفها، ولهذا الخبر أشباه كثيرة في مصادر العصر[29].

وتنعَّمَ المماليكُ باللباس والطعام والقصور المزخرفة سقُوفُهَا وحيطانُهَا بالذهب، وتفننوا في قضاء أوقات اللهو، وأتقنوا ضروب الملاهي والملاعب، وأسرفوا في أفراحهم إسرافا لا حدَّ له[30]. وارتكبوا المظالم، وتعسفوا أيما تعسف في حقوق مواطنيهم، ونكلوا بالفلاحين والتجار تنكيلا، وابتدعوا في التآمر والقتل والتعذيب، حفاظا على المناصب السياسية والمكانة الاجتماعية.

ولم يعان المصريون ظلم المماليك وجورهم فحسب؛ بل ذاقوا الفقر المدقع من جراء الجفاف، والغلاء المفرط في سائر المأكولات، وعمت المجاعات[31]؛ حتى عرضت لحوم الكلاب والدواب الميتة للبيع[32]، وانتشر الطاعون، وصار الأموات في اليوم الواحد بالعشرات[33]، وازداد خطر السرقة وانتشر اللصوص؛ ونهبوا أموال الناس؛ وعاثوا في الأرض فسادا[34].

ومن أبرز خصائص هذا العصر انتشار ظاهرة التصوف، فقد آمن الشعب المصري عامته بالصوفية إيمانا راسخا، وكانوا يقصدونهم لمشاركتهم في الأذكار حتى وصفوا بأنهم "ملوك الآخرة الذين يدخلون الجنة قبل الأغنياء"[35].

ومما ساهم في انتشار الصوفية بمصر هجرة كثير من العلماء والفقهاء من الشام والمغرب العربي والأندلس فوجدوا فيها التربة الصالحة لنشر تعاليمهم ومذاهبهم.

وقد يكون المماليك أنفسهم ساهموا في إحيائها، قصد انصراف العامة من الشعب عن الدنيا وسياستها، وزهدهم في الحياة والمال لينعموا وحدهم دون سائر الخلق، ولعامة الناس الفقر في دنياهم، وعليهم أن ينعموا بنعيم الآخرة[36].

وهكذا ازدادت روح الانصراف عن الحياة والتوكل، كلما شعر الفرد العربي بزيادة الأحداث وتلاشي الخلافة العربية إلى أن بلغ مرحلة اليأس، فأصبح يرى في الحياة الدنيا دار شقاء وفساد.

ومهما يكن من شقاء الشعب المصري فإن المماليك اهتموا ببناء الخوانق[37]، ووضعت لها شروط لمن يدخلها، وصار لكل خانقاه شيخ، له مكانة عظيمة، تَقْرُبُ من مكانة قاضي القضاة[38].

وتظاهر المماليك بالحفاظ على الحياة الإسلامية. حيث يخرج السلطان إلى الميدان لينظر في المظالم، ويحكم بين الناس، فيقبلون إليه يشكون أحوالهم، فكان يأمر بالقبض على من توسع في الظلم[39]، ويجمع العلماء والفقهاء والقضاة ليسألهم عن أسباب الفتن والبلاء[40]. وخلاصة القول يبدو لنا أن الحياة الاجتماعية تميزت بما يأتي:

– عاش المماليك طبقات، أعلاهم السلطان، ثم الأمير، ثم الجيش، ثم أعوان الإدارة، وأدناهم عامة الشعب.

– تمتع الأمراء وقواد الجيش بأموال طائلة، وعاشوا في ثراء فاحش.

– اتصفوا بالظلم والفسق، وأكل أموال الناس بالباطل.

– عانى الشعب المصري من ظلمهم، ومن الجفاف والمجاعات والأمراض، وكثير من الآفات.

–إحياء ظاهرة التصوف ومساهمة المماليك في انتشارها.

–التظاهر بالمحافظة على التعاليم الإسلامية.

ثالثا – الحالة الثقافية :

شهدت مصر حياة ثقافية حافلة بمختلف العلوم والفنون، خلافا للحياتين: السياسية والاجتماعية، وذلك لاهتمام المماليك بالمدارس[41] والزوايا والرُّبُطِ[42]، فأصبحت القاهرة عامرة بها، زاخرة بمجالس العلم والأدب، غاصة بأسواق الكتب والوراقين. فأَمَّها الطلابُ والشيوخ راغبين في التحصيل العلمي والعطاء المعرفي.

وَوُقِّفَتْ على المدارس أوقافٌ مُغِلَّة، ورتبت الرواتب الشهرية للفقهاء والعلماء، وللطلبة أحيانا. ولها نظام تدريس يقوم به شيوخ ومدرسون ومعيدون، فالشيخ هو أستاذ المادة يساعده المدرس، ويعيد المعيد دروس الشيخ لتفهيم الطلبة وسماعها، والطلبة أقسام ثلاثة: المبتدىء والمفيد ثم المنتهي[43].

وعرف هذا العصر حركة نشيطة في التأليف، فظهرت الموسوعات التي تجمع أنواعا شتى من المعارف والعلوم، وكثر تأليف المتون والشروح والحواشي، وبخاصة في علوم القرآن والحديث والتفسير والفقه والأصول، فضلا عن علوم اللغة، خدمة للكتاب والسنة، كما برز شعراءُ سَجّلُوا مواقِفَهُمْ وإحساسَهم من عصرهم. ومن أهم العلوم التي ألفوا فيها ما يأتي:

1–في علوم القرآن والحديث:

غلب على العصر التعليمي الديني، فاهتم العلماء بحفظ القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، وكثرت حولهما مؤلفات عديدة في التفسير والشروح،منها المختصر ومنها المطول، ونبغ في هذه العلوم جماعة منهم:

– ابن النقيب: جمال الدين محمد بن سلمان (611–698هـ)، درّس بالعاشورية[44] ثم بالأزهر، وصنف تفسيرا فيه خمسون مجلدا عنوانه: "التحرير وتحبير لأقوال أئمة التفسير في معاني كلام السميع البصير"[45].

– ابن دقيق العيد: تقي الدين محمد بن مجد الدين علي بن وهب المنفلوطي(625–702هـ) من مؤلفاته: "شرح مختصر ابن الحاجب" في فقه المالكية، و"شرح عمدة الأحكام"[46].

– الدمياطي: شرف الدين عبد المؤمن بن خلف (612–705هـ) من مؤلفاته: "السيرة النبوية" و"كتاب الصلاة الوسطى"[47].

– ا لزركشيّ: محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله بدر الدين (745–794هـ)، فقيه مفسر من تصانيفه: "البرهان في علوم القرآن"[48].

–ابن الجزري: شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد الشهير بابن الجزري(751–833) من مؤلفات: "النشر في القراءات العشر"[49].

ب–في التاريخ:

اهتم علماء العصر بالتاريخ في صوره المختلفة، من تأريخ عام للدول الإسلامية، أو لبد في فترة معينة، أو لسير وتراجم الأعلام والأعيان، ومن المؤرخين:

_ ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن محمد أبو زيد:732–808هـ صاحب "المقدمة" و"التاريخ الكبير" المعروف بـ"العبر في تاريخ الملوك والأمم والبربر"[50].

– القلقشندي: شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد: 782–821هـ، له كتاب "صبح الأعشى في صناعة الإنشا"[51].

– المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر: 760–845هـ صاحب "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" المعروفة بالخطط المقريزية[52].

– ابن تغري بردي: يوسف أبو المحاسن:813–874هـ كان من مماليك الظاهر–برقوق:ت 801هـ من أشهر كتبه "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهر"[53].

– ابن إياس: محمد بن أحمد أبو البركات الحنفي: 852–930هـ كان أبوه على صلة برجال الدولة والأمراء، وجده من مماليك الظاهر برقوق[54].

ج– في الجغرافيا:

وألف جماعة من العلماء في علم الأرض والفلك، واشتهروا بهذا العلم، منهم:

– علاء الدين البيهئي: ت815هـ [55]

– السيد الشريف الجرجاني: ت 816هـ[56]

– سراج الدين بن الوردي: ت 812هـ[57]

– خليل بن شاهين الظاهري:ت 872هـ[58].

د– في الرياضيات: واشتهر فيها:

– محمد بن محمد الحلبي: ت800هـ[59].

– شهاب الدين احمد بن محمد بن علي بن الهائم: ت 815هـ[60].

– غياب الدين الكاشي :ت 830هـ[61] .

هـ – في الطب: وبرز فيه :

– محمد المهدي بن علي بن إبراهيم اليمني : ت 815هـ[62]

– التبريزي فتح الدين فتح الله بن معتصم بن نفيس الداودي: ت 816هـ[63]

– حاجي باشا خضر بن علي البديني (ت820هـ)[64]

و– في علم الحيوان: ومن الذين ألفوا في هذا العلم:

– كمال الدين ابو البقاء محمد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري (ت808هـ)[65]

– محمد بن عبد الكريم الصفدي (ت896هـ)[66]

ز _ في الفروسية والحرب:

ألف المماليك أنفسهم فيها مؤلفات عظيمة، لأنهم كانوا قدوة في الفروسية والحروب دون غيرهم، وعالجت هذه المؤلفات طرق تعليم الرمح، واختيار الفرس، وكيفية إحكام السرج وغير ذلك[67].

ومنهم:

– طيبغا الأشرفي(ت897هـ)له كتاب"بغية المرام وغاية الغرام في الرمي بالنشاب"[68].

–المعلم نجم الدين الأحدب، له كتاب "البنود في معرفة الفروسية"[69].

– أرنبغا الزردكاش، له كتاب "الأنيق في المجانيق[70] .

ح – في الفلسفة:

تؤكد الوثائق التاريخية أن سلاطين المماليك حاربوا الفلاسفة؛ واضطهدوهم فَأَبْعَدُوا وقَتَلُوا من اشتغل بالفلسفة إلاَّ من كَفَّ عن الجهر بها، لأنهم رأوا في ذلك تركا للكتاب والسنة، واشتغالا بأباطيل المبتدعين، ولعل ذلك الاضطهاد بإيعاز من فقهاء السنة وقضاتهم[71]، أو قد يعود إلى خوف المماليك على أنفسهم من تحريض الفلاسفة؛ وإيقاظ الشعب من غفلته، ومع ذلك ظهرت طائفة من الفلاسفة، منهم:

– عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار عضد الدين الأيجي: 708– 753هـ، له كتاب "مواقف الإسلاميين" في علم الكلام. توفي محبوسا بقلعة قرب إيج[72] .

– شمس الدين الكرماني: محمد بن يوسف بن علي بن سعيد : 717– 786هـ،له "أنموذج الكشاف" حاشية عليه[73] .

– التفتازاني: مسعود بن عمر بن عبد الله سعد الدين: 712– 793هـ، من مؤلفاته: "حاشية على الكشاف" للزمخشري[74] .

ط– في اللغة والأدب :

اهتم علماء هذا العصر باللغة وعلومها اهتماما شديدا واضحا وخاصة بالنحو، فلا يخلو عالم أو فقيه من الاشتغال به إلا نادرا، فبلغ اهتمامهم حفظ المتون لا سيما المختصرات منها.

ومن الواضح أن عنايتهم باللغة وعلومها لازمة لخدمة الدين الإسلامي من قرآن وحديث وتفسير، وهذا طابع تعليمهم في عصرهم. لذلك يصعب علينا أن نصف هؤلاء العلماء بالتخصص في علم ما، إلا من باب التغليب الذي برز في بعض مؤلفاتهم التي نالت شهرة وتداولت بين أيدي القراء والدارسين.

1 – في اللغة:

برز في اللغة ومعاجمها جماعة من العلماء، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ما يأتي :

– ابن منظور: محمد بن مكرم بن علي الإفريقي: 630–711هـ صاحب المعجم الشهير "لسان العرب "[75] .

– الفيروزابادي: مجد الدين أبو الطاهر محمد بن سراج الدين يعقوب بن محمد بن – عمر الشيرزاي: 729–817هـ اشتهر ب"القاموس المحيط"[76].

– ابن حجر العسقلاني: شهاب الدين أحمد بن علي: 773–852هـ، له مؤلفات أشهرها: "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة" و"لسان الميزان" و"تهذيب التهذيب"[77].

– جلال الدين السيوطي: عبد الرحمن أبوا بكر بن محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان : 849–911هـ، له ثقافة واسعة ومؤلفات عديدة منها في اللغة: "المزهر في علوم اللغة وأنواعها"[78].

2– في النحو:

قلنا فيما سبق قلما يخلو عالم من نحو، بل تخصص بعضهم فيه، وصاروا أعلاما بفضل مؤلفاتهم التي انتشرت في الأمصار العربية، والتي لا يستغني عنها باحث في هذا المجال.

وذكرنا منهم زمرة [79]، ولا بأس أن نشير إلى علماء من هذا العصر كان لهم الفضل الكبير في الدراسات النحوية منهم :

- ابن مالك: محمد بن عبد الله بن جمال الدين أبوا عبد الله الطائي الجياني، نزيل دمشق: 600–672هـ صاحب"الألفية"و"تسهيل الفوائد"وشرحه[80].

- ابن هشام: جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصاري :702–761هـ ، له: "أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك" و"مغنى اللبيب" و"شذور الذهب"وشرحه[81] .

- ابن عقيل: عبد الله بن عبد الرحمن بن عقيل: 694–769هـ، من مؤلفاته: "شرح الألفية"المعروف ب"شرح ابن عقيل" [82].

3– في الشعر:

لم يخل العصر من الشعراء، إلا أن شعرهم أصيب بالضعف الموضوعي وقلة الابتكار، والإيغال في العامية، والإسراف في التنميق اللفظي، وكان لهذا الضعف دوافعه، أهمها:

- ميل السلاطين إلى العامي، ونفورهم من الفصيح، لأنهم أعاجم لا يدركون معانيه، حيث كان بعضهم لا يجيد العربية، بل كانوا يتعثرون في النطق بها[83].

- أحسن الشعراء بنوع من الغربة في عقر دارهم لمتناقضات الأوضاع ومرارة الصراع بين الوجود العربي الإسلامي، والقوى الخارجية من صليبيين وتتار، وغير ذلك من السلبيات التي سيطرت على الناس[84]، فانصرفوا عن الشعر الجاد الجيد، وعملوا على كسب معيشتهم من حِرَفٍ وصناعات، فكان منهم: الجزار، والكحال، والدهان،...[85]

ومهما يكن من رداءة الشعر؛ فلم ينضب معينه، ولم تجف قرائح الشعراء، وبرز جماعة في هذا الفن كثيرون منهم:

- الشاب الظريف: محمد بن عفيف التلمساني، ولد بالقاهرة سنة إحدى وستين وستمائة للهجرة– 661هـ.ثم انتقل مع والده إلى دمشق، ومات بها سنة ثمان وثمانين وستمائة – 688هـ[86].

- البوصيري: شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي البوصيري، ولد سنة ثمان وستمائة للهجرة– 608هـ بناحية دلاص بمصر، وتوفي في القاهرة سنة أربع وتسعين وستمائة – 694هـ أو بعدها بقليل[87].

_ صفي الدين الحلي: عبد العزيز بن سرايا بن علي بن أبي القاسم، ولد بالحلة (قرب الكوفة) سنة سبع وسبعين وستمائة للهجرة (677هـ) ثم رحل إلى مصر، وكانت وكانت وفاته في بغداد سنة (750هـ)[88] .

وقصارى القول إن الحياة الثقافية في عهد المماليك عرفت ازدهارا قويا لكثرة المؤسسات التعليمية واعتنائهم بها، كيفما كانت دوافعهم لها، سواء لالتماس الغلات العائدة من أوقاف المدارس[89]. أو لشعورهم في بلد عربي إسلامي بالغربة ليلتف الناس حولهم[90]، أو لحسن نيتهم في خدمة الدين الإسلامي وعلومه[91].

ومهما تنوعت حياة العصر الثقافية فإن جهود المماليك أنقذت معارف السابقين وعلومهم، وعَوَّضَت جزءا من أُمَّات الكتب التي بددتها غارات المغول والصليبيين. وهي مصادر عديدة، علومها تعبر عن صور الناس وطبائعهم، في ذلك العصر، وكثير منها لا يزال مخطوطا متفرقا في مكتبات العالم.

وأخيرا فهذه نبذة مختصرة تصور حياة المصريين في سلطة المماليك، من نواح متعددة، أهمها الحياة الثقافية، في الدولتين (البحرية) و(البرجية) عساها أن تكون صوَّرتْ فكرة مفيدة لقارئ هذا النص عن هذه الفترة الاستثنائية في حياة الأمة المصرية، ولعل أن يكون هذا النص أيضا مادة مضافة في رفوف المكتبة العربية والإسلامية.

الإحـــالات

[1]- يراجع: الأدب في العصر المملوكي، محمد زغلول سلام:13/1، وتاريخ الأدب العربي،، شوقي ضيف:34/7.
[2] - تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري، ص: 857، وجواهر الأدب، الهاشمي: 203/2.
[3] - تاريخ الأدب العربي،عمر فروخ: 602/3.
[4] -الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار، جودت الركابي،ص: 120.
[5] - المرجع نفسه، ص:140، ونحو فهم جديد منصف لآداب الدول المتتابعة وتاريخه، نعيم الحمصي:5/1.
[6] - تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري، ص:861.
[7] -المماليك، السيد الباز العريني، ص:55.
[8] -التي وجهها المتعصبون في أوروبا نحو المسلمين من القرن الخامس إلى السابع للهجرة قصد الاستيلاء على المقدسات الإسلامية، وبغية في نشر المسيحية.
[9] - أصلها من جواري الملك الصالح أيوب، أعتقها وتزوجها، كانت تدير الملك في غيابه أثناء الغزوات، حكمت المماليك بعد موت زوجها فتزوجت عز الدين أيبك، وتنازلت له عن السلطة، ولما علمت بزواجه بامرأة ثانية، دبرت له مكيدة قتل فيها، ولكن لم يطل عمرها بعده فقتلت هي كذلك. يراجع: الخطط، للمقريزي: 237/2.
[10] - المصدر نفسه: 2 / 237. والأدب في عصر المملوكي:1 / 13، والمماليك، ص: 45.
[11] - "نسبة إلى" أيوب بن شادي" ومنهم: العادل الثاني، والصالح أيوب، وتوازن شاه، والأشرف موسى، وكانوا أشداء في محاربة الإفرنج مثلاء في أخلاقهم ". يراجع: مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، ص :19.
[12] - تولى الحكم في هذه الفترة خمسة وعشرون سلطانا بدءا بشجرة الدر (648هـ) وختاما بالصالح صلاح الدين حاجي بن شعبان (ت783هـ). يراجع: الأدب في عصر المملوكي: 1/ 18.
[13] - يراجع: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف: 37/7.
[14] - التتار قبائل مستقلة عن المغول، وعلى إثر انتصار جنكيز خان (549هـ – 624 هـ) عليهم،أطلق اسمهم عليه وعلى أتباعه فاشتهروا بالاسمين: التتار والمغول. يراجع:المغول في التاريخ،د. فؤاد عبد المعطي الصياد، ص 55 .
[15] - يراجع: تاريخ الشعوب الإسلامية، بروكلمان، ص: 375، وما بعدها .
[16] - يراجع: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ: 603/3 .
[17] - هم عنصر قوقازي الجنس، ويطلق عليهم اسم الجركس والشركس والجهاركس، وموطنهم المرتفعات الجنوبية من بلاد قبجاق، بين البحر الأسود وبحر قزوين، عاشوا في فقر، معظمهم مسيحيون، أغارت عليهم الدولة الخوارزمية، فأسرت رجالهم وسبت نساءهم وأولادهم، وجلبتهم التجارة رقيقا إلى الأقطار. يراجع: الخطط: 241/2. والمماليك، ص: 63.
[18] - بلغ عددهم سبعة وعشرين سلطانا ، آخرهم: ألأشرف طوماي باي الثاني(922هـ)، الذي تولى السلطنة أياما قليلة، بعد مقتل السلطان قانصوه الغوري، 'ت 922هـ). تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف: 34/7.
[19] - الأدب في العصر المملوكي: 19/1.
[20] - تاريخ الشعوب الإسلامية، ص:369.
[21]- النجوم الزاهرة: 236/15.
[22] - مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، ص: 42.
[23] - النجوم الزهرة: 338/7.
[24] - الخطط: 347/3.
[25] - الإقطاع نظام سياسي يقوم على استبداد نفر من المتقدمين بأراض حينما تضعف الدولة عن بسط سلطتها على رعاياها ،وقد أخذ الأيوبيون هذا النظام، واقطعوا الأراضي للأمراء، غير أن المماليك كانوا طبقة عسكرية قائمة على الإقطاع، وهذه الطبقة نفسها كانت مرتبة بعضها فوق بعض ،تأخذ الدنيا من العليا أرزاقها زيادة عن أراضي الإقطاع. يراجع: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ: 606/3.
[26]- تاريخ الشعوب الإسلامية،ص:372،وبدائع الزهور (ط اسطنبول): 26/5.
[27] - هو التقي الدين أبو بكر بن أحمد بن قاضي شهبة، ولد سنة: 779 هـ وتوفي في سنة: 851هـ ترجمته في: تاريخ ابن قاضي شهبة: 551/1-586، والضوء اللامع: 21/11.
[28] - تاريخ ابن قاضي شهبة: 331/1.
[29] - يراجع: النجوم الزاهرة: 321/15-322-334 . وبدائع الزهور(بولاق): 155/1.
[30] - الأدب في العصر المملوكي: 53/1.
[31] - التواريخ التي حدثت فيها المجاعات في عصر المماليك: سنة671هـ- 849هـ749هـ - 853هـ - 791هـ - 864هـ - 807هـ - 873هـ- 813هـ- 881هـ - 819هـ - 897هـ-821هـ - 902هـ -823هـ 912هـ- 841هـ- 919هـ. يراجع: مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، ص:43. هامش
[32] - النجوم الزاهرة: 423/15-435-436.
[33] - تاريخ ابن قاضي شهبة: 581/1-618-648.
[34] - الأدب في العصر المملوكي: 87/1.
[35] - مصر والشام في الأيوبيين والمماليك، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، ص: 273.
[36] - الأدب في العصر المملوكي: 193/1. ويراجع: الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار، ص: 126
[37] - الخوانق أو الخوانك، كلمة فارسية معناها بيت، ظهرت في الإسلام حوالي القرن 05 هـ وفيها يتفرغ الصوفية للعبادة، ولها شيخ يدعى بشيخ الشيوخ ويعين بتوقيع من السلطان، وأول من لقب بهذا اللقب شيخ سعيد السعداء الطي بناه صلاح الدين الأيوبي، ولها أوقاف، وفيها مخبز وحمام ومطبخ، و... يراجع: الخطط، 414/2-426.
[38]- الأدب في العصر المملوكي،194/1.
[39] - تاريخ ابن قاضي شهبة 328/1، ويراجع بدائع الزهور (ط اسطنبول) 5/5-16.

[40] - النجوم الزاهرة، 92/15.
[41]- يبلغ عدد المدارس التي ذكرها المقريزي في عهد المماليك نحو خمس وأربعين مدرسة. يراجع :تاريخ الأدب العربي وشوقي ضيف،83/7
[42] - الربط جمع الرباط وهو دار يسكنها أهل طريق الله ، والرباط من الخيل الخمس فما فوق ،والمرابطون من لازموا ثغر العدو ،وأصله أن يربط كل من الفريقين خيله ، ثم صار لزوم الثغر رباطا ، وربما سميت الخيل نفسها رباطا وقد يطلق هذا على المواظبة على الأمر ، يراجع الخطط 427/2
[43] -الأدب في العصر المملوكي:109/1
[44] -العاشورية: مدرسة بحارة زويلة في القاهرة، نسبة إلى السيدة عاشوراء زوجة الأمير إيازكوج، وقد وقفتها على الأحناف. الأدب في العصر المملوكي:116/1.
[45] -معجم المفسرين: 535/2.
[46] -شذرات الذهب: 34/6. وكشف الظنون:1164/2.
[47] -شذرات الذهب:12/6.
[48] -المصدرنفسه:335/6. ومعجم المفسرين :505/2.
[49] - شذرات الذهب:204/7.
[50]- شذرات الذهب: 76/7 . والضوء اللامع: 145/4.
[51] - شذرات الذهب:149/7. ومعجم المفسرين:275/1.
[52] -شذرا الذهب:254/7.
[53] -المصدر نفسه: 317/7. وضوء اللامع: 305/10. وأنباء الهصر بأبناء العصرص:175.
[54] - تاريخ الأدب العربي: عمر فروخ:935/3.
[55] - تاريخ الأدب العربي: عمر فروخ: 885/3.
[56] - المرجع نفسه: 885/3 .
[57] -المرجع نفسه : 885/3 .
[58]- تاريخ الأدب العربي : شوقي ضيف: 106/7.
[59] - تاريخ الأدب العربي: عمر: فروخ : 886/3.
[60] - المصدر نفسه: 886/3.
[61] - المصدر نفسه: 886/3.
[6262] -المصدر نفسه: 886/3.
[63] -شذرات الذهب: 122/7.
[64] - تاريخ الأدب العربي : عمر فروخ : 887/3.
[65] - المصدر نفسه: 887/3.
[66] - المصدر نفسه: 887/3.
[67] - المماليك: ص : 101-102.
[68] -المرجع نفسه: ص: 106.-هامش-
[69]- المرجع نفسه:ص: 104.
[70] - تاريخ الأدب العربي : عمر فروخ : 886/3.
[71] - الأدب في العصر المملوك: 160/1.
[72] - شذرات الذهب : 174/6.
[73]- معجم المفسرين : 656/2.
[74] - المصدر نفسه: 670/2.
[75] - بغية الوعاة : ص: 106. وشذرات الذهب: 26/6.
[76]- شذرات الذهب : 126/7. ومعجم المفسرين : 651/2.
[77] - شذرات الذهب : 270/7. ومعجم المفسرين : 51/1، والأعلام: ط3، 172/1.
[78] -الظوء اللامع: 65/4. ونظم العقيان: ص: خ، والكوكب السائر: 226/1. والأعلام : ط3، 71/4، ومعجم المفسرين: 264/1.
[79] -ينظر تراجمهم في ص:21
[80] -بغية الوعاة. ص:53، وشذرات الذهب :338/5
[81] - بغية الوعاة. ص:293، وشذرات الذهب :214/6. ومعجم المفسرين .3301/1.
[82] -ترجمته في:شذرات الذهب .214/6. وبغية الوعاة :ص:284،ومعجم المفسرين:313/1
[83] - الأدب في العصر المملوكي:105/2.
[84] - المصدر نفسه : 107/2.
[85] - تاريخ الأدب العربي : حنا الفخوري: ص: 862.
[86]-ترجمته في : فوات الوفيات : ابن شاكر الكتبي : 422/2، وشذرات الذهب : 405/5.
[87]- ترجمته في : شذرات الذهب : 342/5، وفوات الوفيات: 412/2. وتاريخ الأدب العربي: عمر فروخ : 673/3، وتاريخ الأدب العربي: حنا الفاخوري : ص: 865.
[88]- ترجمته: فوا الوفيات: 579/1، والبدر الطالع: 358/1. وتاريخ الأدب العربي: عمر فروخ: 772/3، والأدب في عصر المملوكي : 243/2.
[89] - مقدمة ابن خلدون: ص: 434.
[90] - جواهر الأدب : السيد أحمد الهاشمي : 203/2.
[91] - الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار : ص: 126. ومصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك: ص: 274.